No. 4468 | الجمعة | 13 جمادى الآخرة 1444 هـ | 6 يناير 2023 م | السنة الخامسة عشرة | Alsabah Media | www.alsabahpress.com

القرآن يرعى الأدب الرفيع تقليلاً لفرص الوقوع في الحرام

الاستئذان ستر لعورات البدن والسكن والمشاعر

القرآن منهاج حياة يحتفل بجزئية الاستئذان وهي جزء من الحياة الاجتماعية، ويمنحها هذه العناية، لأنه يعالج الحياة كليا وجزئيا، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج. فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكنا. ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة، والضيق بالمباغتة، والتأذي بانكشاف العورات.. وهي عورات كثيرة، تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة..إنها ليست عورات البدن وحدها إنما تضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد وهي عورات المشاعر والحالات النفسية، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعال مؤثر، أو يغضب لشأن مثير، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء!

ولكن كل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآني بهذا الأدب الرفيع، أدب الاستئذان ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة والالتقاءات العابرة، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات، وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات، يدبرها الشيطان، ويوجهها في غفلة عن العيون الراعية، والقلوب الناصحة، هنا أو هناك!

ولقد وعاها الذين آمنوا يوم خوطبوا بها أول مرة عند نزول هذه الآيات، وبدأ بها رسول الله – عليه الصلاة والسلام.

أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي عمر الأوزاعي – بإسناده – عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال: زارنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في منزلنا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردا خفيا. قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: دعه يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– «السلام عليكم ورحمة الله». فرد سعد ردا خفيا. ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «السلام عليكم ورحمة الله». ثم رجع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأتبعه سعد فقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام – فقال: فانصرف معه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس، فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يديه، وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة». الخ الحديث.

وأخرج أبوداود – بإسناده – عن عبد الله بن بشر قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم. السلام عليكم». ذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور.

وروى أبوداود كذلك – بإسناده – عن هذيل قال: جاء رجل – قال عثمان: سعد – فوقف على باب النبي –صلى الله عليه وسلم– يستأذن فقام على الباب – قال عثمان:مستقبل الباب – فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم –: «هكذا عنك –أو هكذا– فإنما الاستئذان من النظر».

وفي الصحيحين عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح».

وروى أبو داود – بإسناده – عن ربعي قال: أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو في بيته فقال: أألج؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم. أأدخل؟ فسمعها الرجل فقال: السلام عليكم. أأدخل؟ فأذن له النبي –صلى الله عليه وسلم– فدخل.

وقال هشيم: قال مغيرة: قال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة، وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال:السلام عليكم. أأدخل؟ قالت: ادخل بسلام. فأعاد. فأعادت وهو يراوح بين قدميه. قال: قولي:ادخل. قالت: ادخل فدخل!

«وروى عطاء بن رباح عن ابن عباس – رضي الله عنهما، قال: قلت أأستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال:نعم. فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضا. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قال: قلت: نعم. قال فاستأذن».

وجاء في الصحيح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا.. وفي رواية: ليلا يتخونهم.

وفي حديث آخر أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قدم المدينة نهارا، فأناخ بظاهرها وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء – يعني آخر النهار – حتى تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة».

إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصحابته، بما علمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء، المشرق بنور الله.

ونحن اليوم مسلمون، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، يطرقه ويطرقه ويطرقه فلا ينصرف أبدا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له وقد يكون في البيت هاتف «تليفون» يملك أن يستأذن عن طريقه، قبل أن يجيء، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب، ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان، وعلى غير موعد ثم لا يقبل العرف أن يرد عن البيت – وقد جاء – مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار!

ما تعرض له الصحابة من ابتلاء

سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر رضي الله عنهما

كان والد عمار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدِم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أخًا لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي فزوجه أبوحذيفة أمة له يقال لها سُمية بنت خياط، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبوحذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبدالله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا وصبوا عليهم العذاب صبًا، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة ويقلبونهم ظهرًا لبطن فيمر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فيقول: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» وجاء أبوجهل إلى سمية فقال لها: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام رضي الله عنها وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله، لتبقى كل امرأة مسلمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها ويهفو قلبها في الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله، بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله.

وقد جاء في حديث عثمان: «أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، فقال أبوعمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اصبر»، ثم قال: «اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت» ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقدم شيئًا لآل ياسر، رموز الفداء والتضحية، فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم، وليست لديه القوة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكل ما يستطيعه صلى الله عليه وسلم أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة، ويحثهم على الصبر، لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوة للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

أما عمار فقد عاش بعد أهله زمنًا يكابد من صنوف العذاب ألوانًا، فهو يصنف في طائفة المستضعفين الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة أنصاف النهار، ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول، ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما وراءك؟» قال: شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: «فإن عادوا فعد»، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النحل: 106] وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي حادثتي بلال وعمار فقه عظيم يتراوح بين العزيمة والرخصة، يحتاج من الدعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصحيح، وفي معاييره الدقيقة دون إفراط أو تفريط.

سعد بن أبي وقاص

تعرض للفتنة من قبل والدته الكافرة، فامتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود إلى دينها. قال ابن كثير: «قال الطبراني في كتاب العشرة إن سعدًا قال: أنزلت فيّ هذه الآية: «وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا» [العنكبوت: 8].

قال: كنت رجلاً برًا بأمي فلما أسلمتُ قالت: يا سعد: ما هذا الدين الذين أراك قد أحدثت، لتدعنّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني لشيء، فمَكَثت يومًا وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوما آخر وليلة أخرى لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها.

الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق وذوي المروءات يتنزهون عنه

شر الناس عند الله من لا يُرجى خيره ولا يؤمن شره

اعتبر الاسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة، أن يرسب الغل في أعماق النفس فلا يخرج منها، بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم وكثير من أولئك الذين يحتبس الغل في أفئدتهم يتلمسون متنفسا له في وجوه من يقع معهم؛ فلا يستريحون الا اذا أرغوا وأزبدوا، وآذوا وأفسدوا.

روي عن ابن عباس أن رسول الله قال: «ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا: بلى، ان شئت يا رسول الله. قال: ان شراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده ويمنع رفده. أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، ان شئت يا رسول الله قال: من يبغض الناس! ويبغضونه. قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، ان شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يُقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: من لا يُرجى خيره ولا يؤمن شره». والأصناف التي أحصاها هذا الحديث، أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته وتفتضح سوأته، ولا غرو، فمن قديم أحس الناس، حتى في جاهليتهم، أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق! وأن ذوى المروءات يتنزهون عنه! قال عنترة: لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب وهناك رذائل رهّب الاسلام منها، وليس يفوت النظر القريب أن تعرف مصدرها الدفين انها على اختلاف مظاهرها، تعود الى عملة واحدة هي الحقد. فالافتراء على الأبرياء جريمة، يدفع اليها الكره الشديد، ولما كان أثرها شديدا في تشويه الحقائق، وجرح المستورين، عدّها الاسلام من أقبح الزور.

روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: أتدرون أربى الربا عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: ان أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم، ثم قرأ رسول الله: «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا». ولا شك في أن تلمس العيوب للناس، والصاقها بهم عن تعمد يدل على خبث ودناءة، وقد رتب الاسلام عقوبات عاجلة لبعض جرائم الافتراء وما يبيت في الآخرة لصنوف الافتراء كلها أشد وأنكى . قال رسول الله: «من ذكر امرأ بشيء ليس فيه، ليعيبه به، حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه».

وفي رواية: «أيما رجل أضاع على رجل مسلم كلمة، وهو منها بريء، يشينه بها في الدنيا، كان حقا على الله أن يُذيبه يوم القيامة في النار، حتى يأتي بنفاذ ما قال». وما دام الذي قاله بهتانا، فكيف يستطيع أن يثبت عن الله باطلا؟ وكيف يتنصل من تبعته؟ ان سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، ان عجز عن سوقه اليهم بيده. أما الذي لا يجد بالناس شرّا فينتحله لهم انتحالا، ويزوره عليهم تزويرا فهو أفاك صفيق. قال الله عز وجل: «ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون». ومن فضل الله على العباد: أنه استحب ستر عيوب الخلق، ولو صدق اتصافهم بها.

وما يجوز لمسلم أن يتشفى بالتشنيع على مسلم ولو ذكره بما فيه فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد، ويشتهي لهم العافية، أما التلهّي بسرد الفضائح، وكشفَ الستور، وابداء العورات، فليس مسلك المسلم الحق. ومن ثم حَرّم الاسلام الغيبة، اذ هي متنفس حقد مكظوم، وصدر فقير الى الرحمة والصفاء. عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أرأيت ان كان في أخي ما أقول؟. قال: ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ومن آداب الاسلام التي شرعها لحفظ المودات، واتقاء الفرقة، تحريم النميمة، لأنها ذريعة الى تكدير الصفو وتغيير القلوب وقد كان النبي ينقي أن يُبلغ عن أصحابه ما يسوءه، قال: «لا يُبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا، فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر». وعلى من سمع شيئا من ذلك ألا يوسع الخرق على الراقع، فرب كلمة شر تموت مكانها لو تركت حيث قيلت! ورب كلمة شر سعرت الحروب، لأن غرا نقلها ونفخ فيها، فأصبحت شرارة تنتقل بالويلات والخطوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة نمام»، وفي رواية «قَتّاتٌ».

قال العلماء: هم بمعنى واحد. وقيل: النام الذي يكون مع جماعة يتحدثون فينقل عنهم، والفتات، الذي يتسمع عليهم من حيث لا يشعرون ثم ينمّ. وروى في الحديث: «ان النميمة والحقد في النار، لا يجتمعان في قلب مُسلم». ومن لوازم الحقد سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنية والنفسية. وقد كره الاسلام ذلك كله كراهية شديدة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن عَلِمَ من أخيه سيئة فسترها، ستر الله عليه يوم القيامة». وقال: «من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موؤدة». وكثيرا ما يكون متتبعو العورات لفضحها أشر اجراما، وأبعد عن الله قلوبا من أصحاب السيئات المكتشفة، فان التربص بالجريمة لنشرها، أقبح من وقوع الجريمة نفسها. وشتان بين شعورين، شعور الغيرة على حرمات الله والرغبة في حمايتها، وشعور البغضاء لعباد الله والرغبة في اذلالهم ان الشعور الأول قد يصل في صاحبه الى القمة، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التشفي من الخلق، وانتظار عثراتهم، والشماتة في آلامهم. وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرون. فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوي الأثرة بالمرء، فتجعله يتمنى الخسار لكل انسان.